الفكر الديني

للدين اهمية قصوى في حياة الشعوب القديمة و يعد من العوامل المهمة والمؤثرة في سير حياتها واسلوب تطور حضارتها، فالمعتقدات والافكار الدينية تحدد الاطار العام لسوك الانسان وحياته وعاداته وتقاليدة واعرافه وقوانينه(1).

 اذ اتصفت الافكار الدينية في منطقة حوض الفرات بعدد من الصفات والسمات العامة والتي سنتعرف عليها من خلال معرفة المعتقدات الدينية التي انتشرت بين السكان ومن خلال الطقوس والممارسات الدينية والتي كشفت عنها النصوص التاريخية ومنها:-

**الاســــــاطير**

اذا ما التمسنا من خلال الأطلاع الى تاريخ وجغرافية دين الانسانية القديم سوف يظهر لنا عن بنية موحدة له، اذ يقوم الفكر الديني على عدد من العناصر أو المكونات الاساسيةوالتي من دونها لانستطيع فهم المعتقدات الدينية لشعب ماوقد لعبت دوراً حاسماً في تكوين الدين وأحدى هذه المكونات والعناصر الاساسية هي الاسطورة(2).

وقد شغلت قضية أصل الوجود كل الحضارات ونشأت حول ذلك عقائد مختلفة وجسدوها بهيئة ملاحم شعرية وقصص وأساطير تمتاز بعدم الثبات والاختلاف فيما بينهما ولكنها تتفق في الفكرة الاساسية(3).

وتقدم لنا هذه الحضارات كيفية نشأة الدين وتطوره في منطقة ذات اجناس وثقافات مختلطة ظهرت فيها ديانات التوحيد الكبرى(4).

وسعى القدماء إلى ايجاد الأجوبة التي تشبع تفكيرهم المتعطش للوصول إلى أيجاد تفسير مناسب لكل ما يحدث حولهم، لذلك ظهرت لديه حركات فكرية بعضها دينية والأخرى أدبية.

ومن هنا أنطلق منشأ الأسطورة وبأختلاف مسمياتها فيها كواحدة من أهم الظواهر الثقافية الانسانية التي يمكن من خلالها التعرف على فكر وثقافات الشعوب القديمة، وإذا كان من الممكن تمييز اصل الأسطورة ووضع تعريف دقيق من خلاله يمكن أعطاء صورة واضحة لمعانيها(5).

ويمكن أن نعبر عن الأساطير بأنها حكايات أدبية تلعب الألهة الأدوار الرئيسية فيها ولكن الشي الذي يميزها عن الخراقة هو أنها حكايات مقدسة وهذه القدسية هي التي تميز تماماً جنس الأسطورة عن بقية الأجناس الأدبية الشبية بها(6).

فالأسطورة تروي تاريخاً مقدساً وحدثاً جرى في الزمن القديم، أو تحكى لنا كيف جاءت حقيقة ما الى الوجود، ولا تتحدث ألا عما حدث فعلاً، أما اشخاص الأساطير فهي ((كائنات عليا)) نعرفهم بما صنعوه من الاحداث قديماً وذات تأثير فعال وهي تكشفعن الفعاليات المبدعة لهذه الكائنات العليا(7) والتي يقصد بها الالهة.

وأما في تفسير أصل الأسطورة وفي محاولة من البعض في الوصول الى أساس علمي مشترك أوجدوا أربع نظريات في تفسير أصلها وهي (النظرية الدينية) التي تقوم على أن حكايات الأساطير مأخوذة من الكتب المقدسة مع الأعتراف بأنها غيرت وحرفت، والنظرية الأخرى هي (النظرية التاريخية) الذي تذهب إلى أن شخصيات الأساطير عاشوا فعلاً وحققوا سلسلة من الأعمال التي خلدتهم اما (النظرية الرمزية) التي يقوم مفهومها على أن الأساطير بكل أنواعها هي مجرد كلام وضع له معنى بغير وجهه الصحيح، والنظرية الأخيرة هي ( النظرية الطبيعية) التي تقوم على مبدأ تخيل عناصر الكون من ماء وهواء ونار في هيئة أشخاص أو كائنات حية أو أنها تختفي وراء مخلوقات خاصة وعلى هذا النحو وجد لكل ظاهرة طبيعية كائن روحي ابتداءاً من الشمس والقمر والبحر وحتى أصغر مجرى مائي يتمثل فيه ويبني عليه أسطورة(8).

وكانت الأساطير تنتقل من عصر إلى عصر ومن شعب إلى شعب لتساهم في عملية استمرار التطور الحضاري فمعظم هذه الأساطيروجدت مدونة في عصر الإمبراطوريات مثل الحثية اذ وجدت أصولها من عصور الحضارات السومرية الأكدية والبابلية ولم يطرأ تغيير جوهري على هذه الأساطير خلال فترات انتقالها عبر الحضارات المتعاقبة سوى تبدل بعض الاسماء وتحوير طفيف في مجرى أحداث الأسطورة(9).

وفي هذا المضمار هنالك ثلاث جوانب رئيسية بالأساطير في منطقة حوض الفراتسنذكرها لكونها تبين التشابه الواضح في الفكرة الرئيسية لتفاصيل الأحداث.

ونجد في الاسطورة لدى اقوام حوض الفرات مفاهيم اختفاء الالهه اذ نرى لدى الحيثيين (الرب الذي غاب) وأصل الفكرة الدينية هنا يمكن ملاحظتها من خلال تفسير هذه الأسطورة حيث أن بطل الرواية هو الاله تلبينو ولكن في نصوص أخرى تعطي الدور لوالد إله العاصفة أو الشمس، ومجازها أن هذا الأله يختفي بسبب غضبه من البشر وباختفائه أصبح كل شيء باهت لا حياة فيه(10).

تماثلها الأسطورة السورية أسطورة غياب الأله (أيل)، حيث تم اختطافه للعالم السفلي وبعدها موته ويكون بانتظار إله جديد وهو يتحول الى ملك للألهه هو بعل(11).

هاتين الأسطورتين نسختا من (أسطورة ديموزي)، إله العالم السفلي وقد أعتبره البعض بإنه أله الخصوبة وبموته تنتهي الحياة على الأرض(12) على العكس من الاله الحثي (تلبينو) الذي يعود مره أخرى الى الحياة ولا تقام المراسم لاختفائه بينما يعم الحزن في كل مكان في الاسطورة السومرية (ديموزي) وتلعب الألهة (إينانا) دوراً مهماً جداً في هذه الأسطورة بينما لا تلعب زوجة (تلبينو) أي دور يذكر(13).

في هذه الاساطيركان التركيز على الأفعال البشرية والألهه تتدخل من وقت لأخر، وقدمت الرواية الحيثية للأسطورة الكنعانيةأطارها الاساسي المعروف من خلال النصوص التي تناولت الاساطير الخاصة بالاله (بعل) والتي عثر عليها في مدينة اوغاريت(14).

ومن القطع الأدبية الحيثية الاخرى المعروفة باسم (كوماربي والسيادة) وهي من أصل حوري اذ يأخذ هذا الأله دوره بأنه أبا الألهه وهو مساوي للاله السومري البابلي (أنليل)(15).

وجاءت الأسطورة بشكل مشهد غنائي تروي تفاصيل جهود كوماربي من أجل استعادة الملكية من قبل تيشوب و خلق خصم قادر على قهر الإله تيشوب(16).

بينما نظيره إلاله أنليل سيد مجمع الألهة في بلاد وادي الرافدين، اذ أشارت النصوص الخاصة بهذه الأسطورة إلى انتقال الولاء إلى الإله (أنكي) سيد الذكاء والمعرفة(17).

وعلاوة على هذه الأسطورة وردت أساطير أخرى تحمل نفس الفكرة الأساسية حول السلطة وهي أسطورة (المنافسة الألهية) وتمثل صراع الألهة فيما بينها تماما كالصراع ما بين الصيف والشتاء والحياة والموت ومثله الصراع ما بين ((بعل ويم)) في سوريا وبين إله العاصفة والتنين) في الاناضول وبين (مردوك وتيامات) في بلاد وادي الرافدين(18).

والجدير بالذكر ان هنالك اسطورة اخرى عثر عليها في انتفاض مكتبة أشور بانيبال في نينوى أشارت فيها إلى خلق الزوجين البشريين الأوليين أدم وحوراء (19).

ويمكن القاء الضوء على نصوص هذه الاسطورة

**عندما خلق الإلهة في مجمعهم الأشياء**

**كونوا السماء وشكلوا الأرض**

**أخرجوا للوجود الكائنات الحية ...**

**قام أيا بخلق زوجين شابين**

**وأعلا شأنهما فوق جميع المخلوقات**

 يلاحظ من النصوص الاولى، تداخل خلق الأنسان الأول وأيضاً تشير إلى خلق البشر دفعة واحدة، والثانية تأتي فقط على ذكر الزوجين الأولين وخلقهما جاء بعد خلق الكائنات الحية أجمعها(20).

اما أسطورة خلق الأنسان الأمورية أخذت نفس الفكرة والسلوك، بأن هناك إله السماء (مر) وألهة الأرض (أر) وخلق هذان الألهان الأنسان الأول ، وكان أسم الرجل الأول مشابه لأسم إله السماء ولكن أسم المرأة لم يكن مشابهاً لأسم إلهة الأرض، فكانت تعرف عندهم بـ(مرة)، وهكذا يكون الأسمين (مر) و(مره) أسمين لأدم وحواء ولا توجد أية إشارة لتفاصيل لأسطورة خلقهما(21). ومما تجدر الاشارة اليه ان هذه الاسطورة هي سومرية الاصل واصبحت جذورا لمادة الاسطورة السورية الكنعانية حيث ان اسم الرجل الاول في السومرية هو لولو واسم المرأة هو لولوة التي تحولت الى ليليث(22).

وهنالك اسطورة اخرى وهي تخص معركة قامت بين التنين او الافعى الويانكا واله العاصفة الحثي حيث حصلت كما يبدو في مدن اناضوليه مثل تاروكا وزاكارتا ونقتطف من نصوصها:

 عندما تقاتل اله العاصفة مع الافعى في كيسكلوسا هزمت الافعى اله العاصفة

 بعد ذلك اثار اله العاصفة كل الالهة: (تعالوا الي) وعليه اعدت انارا وليمة

 اعدت كل شيء على نطاق واسع من كؤوس مملوءة بالنبيذ ..

 بعد ذلك ذهبت انارا الى مدينة زيكارا ووجدت اسمه هوباسايا تحدثت انارا كالتالي(23)

 الى هوباسايا :( انا على وشك ان اقوم بوليمة واريدك ان تنضم الي)

 بعد ذلك قادت انارا هوباسايا للخارج واخفته لبست انارا ثوبا ونادت الافعى من حفرتها قائلة لها: انا اعد وليمة تعالي كلي واشربي.. جاءت الافعى مع

 وليدها واكلوا وشربوا .. جاء هوباسايا وقيد الافعى بحبل

 جاء اله العاصفة وقتل الافعى وكانت الالهه معه(24).

 تناولت الأسطورة الصراع ما بين اله العاصفه وبين التنين او مايسمى عند الحيثيين الويانكا

وفي بداية الامر كان النصر للافعى، فاستنجد اله العاصفة ببقية الالهه فتساعده الالهه انارا اذ تدعو شخصا يد على هوباسايا الى وليمه كانت قد اعدتها للاطاحة بالافعى فيقوم هوباسايا بربط الافعى بالحبل فيقتلها اله الجو وبهذا تنتهي القصة اذا يمثل ىالصراع بين كائن اسطوري يمثل هيئة حيوان وبين اله فكانما هو صراع بين الخير والشر وتلجأ الالهه الى الانسان ليكون طرفا ثالثا في الصراع.

واسطورة تمثل صراعا اخر بين الخير والشر بين اله البحر والاله بعل السوري، اذ يبدأ الصراع بجدال عنيف ولا يعرف سبب الخصام بينهما(25) ونقتطف نصوص من الاسطورة:

 لقد وقفت في وجه...

فاجاب بعل الكلي القدرة

هل يمكن ان تطرد من على العرش الملكي

من مركز ملكك؟

سيضرب (ايمر) راسك ايها الامير يم

ويضرب جمجمتك ايها القاضي نهار

وتنهي نصوص القصيدة الطويلة بمقتل يم الذي هو يقصد به البحر

 فجر بعل يم ومزقه

وعندما تبعثرت جثة يم اصبح بعل الملك الاوحد

.......

نعم لقد مات يم... نعم وسيسود بعل(26)

 واسطورة مماثلة للاسطورة الاناضولية لكن الفكرة فيها تقوم على مساعدة الانسان للحيوان على التغلب على الالهه وهي اسطورة ايتانا والنسر واحده من الاساطير المهمة في حضارة بلاد وادي الرافدين والتي قصتها:

 ان ملكا كان يدعى ايتانا وكان يريج وريثا لعرشة وكان يتقرب الى الاله شماش ملتمسا ان يرزقة بالنسل قائلا: ارني نبات النسل وارزح عني العبء وهيء لي من يرث اسمي ويخلفني.. فيقول له شما شان عليه ان يجتاز الجبل وحينئذ سيجد فيها نسر وعليه ان يخلص هذا النسر من سجنه وبذلك سيرشده الى النحل الذي يجد فيه نبات النسل. حيث ان هذا النسر كانت له قصة مع ثعبان، اذ تعاهد كل منهما على حماية اطفال الاخر واقسما بايمان الصداقة المقدسة.. ولكن النسر ابتلع اطفال الثعبان مما ادى الى غضب الثعبان عليه ولجأ الى شماش لياخذ له بالثأر ممن حنث بالقسم فارشده شماش الى طريقة توقع النسر في حفرة وسجنه وكسر جناحيه، ثم يتوجه النسر الى شماش يتوسل الية ويتدخل بذلك ايتانا ويخلص النسر من هذا المأزق(27)، فقرر النسر ان يكافيء ايتانا فطلب منه ان ياخذه الى مكان عشب النسل وشعائر ااسلطة التي تسمح له ان يوطد ملكه على الارض الموجودتان في سماء (عشتار) لانها تملك هذه النبته العجيبة، فصعدا الى سماء عشتار وبعد ست ساعات من الطيران اصيب اينانا بالدوار فافلت يديه وسقط على الارض ولاشك ان الالهه عاقبته لان طموحه كان اعلى من ذلك فحرمته من العشب والذرية(28).

يتضح قصة الاسطورة تدخل الانسان في حل النزاع بين النسر والافعى والالهه وكان دوره ان يتدخل ليخلص النسر من عقاب الالهه بسبب عدم التزامه بوعده للافعى وبالتالي يعاقب ايتانا نفسه من قبل الالهه بسبب طمعه وغروره في الحصول على شارات الملك من السماء(29).

- الشرك والوثنية -

تميزت الديانة القديمة بالشرك على الرغم من ظهور عقيدة (التفريد)(30) في عبادة بعض الأقوام مثل البابلين والفراعنة والعبرانيين في العهود الأولى من تاريخ ديانتهم فإن الصفة العامة في العقائد الدينية القديمة هي عبادة ألهة متعددة(31).

وهذا ناتج عن فكرة خوف الأنسان من أشياء ليس بمقدوره فهمها، لذلك كان عليه أن يجسدها على شكل ألهة مثل النجوم والرياح والمطر والشمس والقمر وغيرها، أو أرواح رئيس القبيلة والاجداد و أعضاء القبيلة، فالأرواح هي تجسيد وتشخيص للقوى التي يخشاها ولا يستطيع أن يدركها أو يصل إلى مستواها لذلك فهو يجسدها في صوره شبه إنسانية(32).

والديانة التي كانت منشرة في شمال حوض الفرات، هي ديانة كانت تقوم على مبدأ الشرك على غرار معظم ديانات سكان الشرق الأدنى القديم اذ تعددت الإلهة فيها تعدداً كبيراً ويبدو أن تطوراً دينياً بدأ قبل ذلك بفترة بعيدة حتى بلغ هذه الدرجة من التعقيد(33).

حتى أنهم صوروا إلهتهم على منحوتاتهم مع أزياء تخصهم فجعلوا للإله قبعة مقرنة ويرتدي تنورة تكون مزينة حسب مكانة الإله والقوة التي يتحكم بها، بينما يلاحظ الالهة الانثى ترتدي أثواباً طويلة شبه دائرية ويغطي رأسها قبعة مقرنة(34) تماماً كالبشر.

ويمكن القول أن أهمية إلهة الاناضوليين ومكاناتها بينهم كانت تتبع تسلسلاً هرمياً وفقاً لقوتها ووظيفتها في تصورهم ومفهومهم(35).

وفي السنوات الاخيرة من عهد الامبراطورية الحثية ظهر نوعا من التوحيد قد تمثل بالدمج بين الالهة تيشوب الحوري وإله الجو الحثي وكذلك بين الألهة أرينا الحثية والألهة خيبات الحورية) ويبدو أن هذا التطور قد حدث لتأثير الملكة بودوخيبا زوجة حاتوسيل الثالث، وهذا بالأضافة إلى أنهم كانوا يعتقدون بفكرة الشفاعة (36).

وتشكل ظاهرة تقدس الأنهار أهميتها بالنسبة لسكان الاناضول، حيث وردت في أحدى الالواح نصباً يتضمن ذكر قرابين قد قدمت لنهر الفرات(37).كما أنهم قدسوا الجبال وأن الأله الذي يمثلها يكون تابعا لأله الجو ووجدت رموز ومنحوتات جسدت هذه الإله(38).

بينما يلاحظ ظاهرة عبادة الاسلاف هي من أفضل تجليات حالة الشرك التي قامت في كثير من المراكز العمرانية السورية(39) بالأضافة الى ظاهرة تعدد الألهة فهنالك لديهم إله واحد مألوف له دوراً هاماً في سوريا لذا نجد تقديسه بشكل خاص، وانتشر في المنطقة بأكملها هو إله الطقس (حدد) الذي حسب اعتقادهم أن له أنبياء حرفياً (المستجيبون/الملبون) الذي ينقلون رسالته الى الملوك(40).

أذن يظهر أن لدى السوريين القدماء نزعة إلى التوحيد بأختيار أفضل إلهتهم على بقية الألهة الأخرى.

ولابد من الأشارة أن الوضع السياسي الممزق الذي كانت تعيشه- سوريا في ظل أمارات ودويلات مدن كثيرة لم ينعكس أطلاقاً على وحدة الفكر الديني أو الحضاري، رغم تعدد ظواهره وأفتراق طرقه بدليل أن أسماء الألهة وأشكال الشعائر الدينية وأن بدت متبانية في الظاهر ألا أنها تلتقي في الجوهر والأساس في نهاية المطاف(41).

ومن الجدير بالذكر أن الديانة السورية وخاصة الأرامية هي ثمرة نضوج نموذج من العناصر المحلية الأصلية وقد تجانست مع نماذج مجاورة لها، حيث يمكن أن نلمس التمازج والتداخل الأرامي الأشوري في مدينة ترقا، أضافة الى التمازج الارامي الحثي في كركميش وحلب، والاساس المشترك بين التداخل الديني هو أله العاصفة السوري والإله دجن سيد منطقة الفرات(42).

بينما توصل الفكر الرافدي، الى فكرة جديرة بالاهتمام وهي فكرة (التقمص) التي تعني أن نفس الأنسان تستطيع أن تتقمصأبدان كثيرة سواء اكانت حيوانية أو جمادية أو أنسانية وبهذه الطريقة يستطيع أن يصبح إلهاً وتتقمص شخصيته القوى الكونية الكبرى التي تحيط به وهكذا يستطيع بالفعل والحركة التأثير عليها بمجرد الرجاء والتوسل أليها(43).

وكان سكان جنوب الحوض يعتقدونبوجود قوى عديدة تتحكم بهم فعمدوا الى تأليه تلك القوى، ومن أهمها الهواء والأرض والكواكب كالشمس والقمر، والنجوم والبحر والنهر(44).

أذن فقد طغيت صفة الشرك على ديانتهم(45) ولكنهم كانوا مدركين بأمكانية ظهور إلهة متعددة ولكنها تكون كلها ذات وجه لرب واحد، فنقرأ في نص (نركال هو مردوخ المعارك، أنليل هو مردوخ الشورى والحكم وشمش هو مردوخ الحق والعدل)(46). فعظمت مكانة هذا الأله وأصبح هو المسيطر وأسمه يعني أبن الضوء وظل محتفظا بمكانته حتى نهاية العهد الكلداني 625- 539 ق.م(47).

وكل ذلك يقود الى صعوبة تصور وفهم الديانة الشركية والتي انتهت بمرور الزمن الى ابعد الحدود من المنطقة، وتميزت بعدم وجود اية مركزية، وعوضا عن استعمال رموز الطريق والبوابة التي من المحتمل انها تكون معرفة لوحدانية الاله فان النظام العقلي الفطري قاد الى ترتيب تراكيب متعددة الاوجة لديانات الشرك(48).

التوحيد

مبدأ التوحيد كان حاضراً على الدوام في جميع الديانات والدعوات السماوية، ولا يستثنى من ذلك نبي ولا رسول، وهو ملتقى الأديان ويمثل الركيزة الأساسية للدين، فالموحد يكون مستقراً من الناحية النفسية ولا يوجد تضارب في ولائه فهو لله وحده وذلك يضفي عليه مزيداً من الاستقرار الذي يعنيه على العمل والنشاط وهذا ما تحتاجه الحضارات والمجتمعات(49).

كانت هنالك ميول واضحة للخروج من حالة الشرك، وقد عرفت هذه الحضارات مبدأ تعظيم إله واحد دون نبذ عبادة الإلهة الأخرى(50).

اذ قسم البعض الأدوار التاريخية الخاصة بديانة التوحيد الى عدة مراحل وهي الفترة الأولى التي سبقت عصر النبي إبراهيم () ويمتد حتى القرن التاسع عشر والديانة هنا كانت وثنية بمختلف وجوهها، أما الفترة الثانية هي فترة عصر النبي إبراهيم () ويرجع تاريخه الى القرن التاسع عشر والديانة في هذه الفترة كانت وحدانية الله إلى جانب الوثنية المختلفة،بينما تتمثل الفترة الثالثة عصر النبي موسى()يرجع تاريخه الى القرن الثالث عشرقبل الميلاد اما الديانه هنا كانت الوحدانية ومن بعدها حدث الانحراف نحو الوثنية(51).

ونختلف مع هذا التقسيم لان التوحيد وجد منذ بدء الخليقة منذ الازل، وان كان التصور خطأ ان التوحيد بدا بموسى () بأهل التوراة وان الفترة من قبل مبعث ابراهيم وثنية فأين ذهب الانبياء والناس منذ ان وجد ادم ().

كما تجدر الاشارة الى هنالك اختلافا في فترة عصر النبي ابراهيم () فالبعض من يعود بها الى فترة سلالة اور الثالثة او بداية القرن الثامن عشر.

والجدير بالاشارة الى ان الافكار الدينية التي روج لهاالسومريون كان لها دورا استثنائيا في حياة الشعوب لاكثر من ثلاثة الالاف سنةتميزت بالسيطرةعلى اعمالهم الفنية والادبية وطغت على كل اشكال انشطتهم اليومية، ولم يسبق ان احتل الدين مكانة مرموقة كهذه في اي مجتمع قديم اخر لم يشعر الانسان بنفسه متوكلا على ارادة الالهة تمام الاتكال ويجب ان لا تغدوا الحوافز الدينية منسية او يتم التقليل من شانها(52).

والقران الكريم عبر عن حقيقة الانبياء ومتابعة ظهورهم واقوامهم وبين لنا ارتباط المؤمنين والانبياء من خلال التوحيد والعقيدة التي جاءوا بها وارتباطهم بمصدر واحد(53).

وعكست النصوص المسمارية مايروى قصص انبياء ورسل عرفناهم بهدي كتاب الله الكريم وتدل هذه النصوص على إنهم عاشوا على أرض بلاد الرافدين وسجلت قصصهم بقدر ما استوعبتها عقول الناس حينذاك أو بحسب ما رويت لهم، ومن هذه القصص قصة سيدنا نوح والطوفان في ملحمة كلكامش(54).

ان قصة الطوفان حدثت بسبب خطايا البشر، ورغبة الألهة لوضع حد لما يرتكبه البشر بعين يقظة ساهرة ليصححوا أخطائهم(55).

ومن الجدير بالذكر أن النص الأكدي يحدد موطن أوتا- نبشة (نوح)، في مدينة شورباك في منطقة الرفاعي، على مجرى الفرات القديم(56).

بعد ذلك شاء الله سبحانه وتعالى في الفترة التي شهدت حركات بشرية وهجرات مختلفة بين بلاد الرافدين والمناطق الشرقية والغربية المحيطة بها وخاصة في الفترة التي شهدت تقدم قبائل الاموريين نحو بلاد الرافدين خلال العصر البابلي القديم (2006-1595ق.م)أن يكون مولد خليل الرحمن سيدنا ابراهيم () في الاجزاء الجنوبية منه(57).

 ونجد ان زمن هجرته الذي حدد بحوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد يقع في فترة حرجة كانت تجتازها البلاد وهي في حالة توتر واضطراب وهي الفترة التي اطلق عليها الاثاريون فترة ايسن ولارسا(2006- 1800 ق0م)(58).

ويرجح ان ابراهيم الخليل ()وقد سلك طريق (الفرات الايمن) في رحلته التي ابتدأت من (أور)الى (حران)وهي نفس الطرق التي كانت تسلكها القوافل التجارية فمر عليه السلام اولا ببلدتي ((هيت)) و((عانة)) ثم (ماري) التي كانت في تلك الفترة باوج ازدهارها ومنها مر بمدينة البوكمال والميادين ودير الزور ليعبر الفرات عن مدينة الرقة وبعدها يصعد شمالا مع نهر البليخ حتى يصل الى مدينة حران وبعدها توجه الى دمشق عبر تدمر ومنها يصل الى فلسطين(59).

وقد جاء أسم قريب ربما من ابراهيم في بعض نصوص بلاد الرافدين وهو اسمأباراما - Abarama مسجلا على لوحة طينية ، ترجع الى عهد الملك آمي صادوقا 1646-1626ق.م) الملك العاشر من سلالة بابل الاولى (1894-1595ق.م) وأن من المحتمل ان يردمثل هذا الاسم في هذه النصوص دليل على ان اسمابراهيم لم يكن غريبا في تاريخ بلاد الرافدين، ومع الاخذ في الاعتبار ان احتمال العثور على اسماء الرسل وانبياء في النصوص امر غير ميسور، لحقيقة الصراع القائم بين القيم السماوية والانسانية التي تدفع ببعض تلك المجتمعات الكافرة الى إغفال ذكر رجالات الدعوة الى الله وطمس معالم الهدى في تاريخ البشرية(60).

ومن الواضح ان ابراهيم() لم يدخل اي من تلك المناطق التي مر بها غازيا ولا محاربا ولا محتلا ولا فاتحا: ولكن في زمنه كان الكثير بمن يسكنون بلاد الرافدين وهضبة الاناضول من يعبدون السماء والنجوم وانتشرت هذه العبادة انتشارا واسعا ونتيجة هذا المعتقد ظهرت انواع من بيوت الالهه وهي(الزقورات) على امتداد المنطقة الواقعة ما بين بلاد وادي الرافدين، سوريا وهضبة الاناضول، وكانت تستخدم المعابد مراصد فلكية وهنا عبد الاله سن (اله القمر) فرفض ابراهيم عبادة هذه المعبودات والتفت لعبادة الله وحده(61).

وربما ان مروره بهذه المدن والمناطق جاءَ تنفيذا لامر الله عز وجل ولا بد ان عقيدته قد اثرت في عقيدة بعض شعوب هذه المناطق لذلك يمكن القول انه اول الانبياء الذين داروا حول حوض الفراتومربمدنهِ من اجل نشر عقيدة التوحيد بعد الانحراف الذي حصل في عقيدتهم.

وبعث انبياء اخرون من بعده، في الفترة التقريبية 1897-1717 ق.م وهو النبي اسحاق الذي بعث لبلاد الشام، ولأقوام محددة منها وهم الكنعانيون ومن بعده يعقوب في الفترة 1750 ق.م وأيضا لنفس الأقوام(62).

في هذه الفترات انتشرت في حوض الفرات ومعظم بلاد الشام عقيدة التوحيد، بعدما أنتقلت عبادة الأله (سين) إلى سوريا وعبده الفينيقيون والأراميون وكذلك العرب البدو والهكسوسفي سيناء وبعد دخولهم إلى مصر تمكنوا من الاستيلاء على الحكم فيها خلال (1785- 1580 ق.م) وقد عرفهم المصريون بأسم (مينوساتي) أي رعاة أسيا وحمل هؤلاء معهم وكما يرى البعض عقيدة التوحيد المتمثلة بإله الجبل غير المشخص(63).

وهناك من رأى ان فترة الأنتظار حتى التحول الكامل إلى عبادة (الله الواحد) لم تطل، فأختفت الصورة والتماثيل ولم يبقى سوى الرمز الذي يدل عليه مع مجتمع إنساني لا يؤمن ألا بما هو مصور مرئي وما هو مادي ملموس ومحسوس، فكيف تصدق الاقوام أن هناك ألهاً لا يرى ولا يلمس، لهذا كان لا بد من مخرج يقرب فكرة الإله لهمفتبلورت القناعة بأشعة الشمس التي تتدلى من السماء وتنتهي بالأيدي البشرية التي تهدي البشر لذلك ظهر رمز (قرص الشمس) الذي لا ينطق بعبادة أخرى غير عبادة الله الواحد(64).

وربما ان مجيء نبي الله (يوسف) وأخوته والذي يرجح ان يكون في زمن الهكسوس الذين داهموا مصر في سنة 1700 ق. م(65) اذ بدأتدعوته التوحيدية تقريبا بين (1745- 1635) ق.م في مصر مع الهكسوس وبنو إسرائيل(66).

وربما يمكن القول ان عبادة إلة القمر (سين) اعتبرت محاولة توحيدية قام بها نبوئيد (555-539 ق. م)،ولكنتجدر الأشارة إلى أن في التوحيد المجرد يمكن لأي رمز أن يأخذ صفة إلاله الجامع للمجتمع كالقمر أو الشمس أو الطقس والمطر... ألخ، ولكن في التوحيد الألهي لا يمكننا فهم هذه الحالة ألا بمسارها التطوري الطبيعي من أنو إلى أيل نحو الله(67).

أستمرت عملية الدعوة إلى التوحيد، بظهور أنبياء وبفترات متقاربة، فقد وردت قصة النبي أيوب في نص مسماري أكدي يعود تاريخه إلى العصر البابلي الوسيط في نحو القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد، حيث عثر على كسر لهذا النص التي من أصل سبع وعشرين نسخة وجدت في مواقع مدن قديمة مختلفة من بينها (بابل سبار، نينوى، أور، وخوزيرينا (سلطان تبه حاليا في الاناضول) ويرد اسم (المؤمن المبتلى في هذا النص بالصيغة الأكدية (شبش- مبشري- سموقان) ويفهم من النص أن موطنه كان في (بابل)(68).

ويرى كثير من الباحثين ومنهم (بنيامين جرين) في تلخيص التاريخ للعهد القديم أن النبي أيوب () أقدم من موسى()، إذ حدد تاريخه بعام (1520 ق.م) (69).

وعثر أيضا على ألواح طينية تتحدث عن قصة شبيهة بقصة النبي أيوب وهي القصيدة المعروفة بقصيدة (العدالة الألهية) ومن المحتمل أن تدوين هذه القصيدة يعود الى زمن نهاية العصر الكاشي ربما إلى حدود(1000ق.م) وهو حوار بين المعذب وصديقه الحكيم الذي نصح المعذب بعدم اليأس من الحياة، وأيضا عثر على قصيدة أخرى ودونت بنفس الفترة وهي (لأمجدن رب الحكمة) وهي تدور عن رجل أسمه (شيشي- مشري- شكان)، حيث يظهر أنه كان رجلا تقيا يخشى الألهة ويؤدي الطقوس ويحسن الى الناس وكانت له ثروة طائلة ولكن فجأة ساءت أحواله وتنكر له الدهر وأصابه اليأس والقنوط(70).

تبين مما تقدم أن النبي (أيوب) وعلى حد ما قيل عن تدوين قصيدة العدالة الإلهية أنه قد عاصر الكاشيون.

بعدها ظهر نبي أخر وبعث للأقوام الارامية وما حولها فكانت بعثه التقربية حوالي 1460 ق.م، وهو ذو الكفل(71) وهو من ذرية خليل الله من أحفاد النبي إسحاق.

ومن الأنبياء الذين أثرو في منطقة حوض الفرات أيضا وكانت لهم علاقة مع بعض الأقوام الذين سكنوا المنطقة، هو نبي الله داود () حيث ظهر بالفترة التاريخية (1010 – 961 ق.م)، وكون (امبراطوريته الصغيرة) كمحاولة لملئ الفراغ الذي ظهر في المنطقة نتيجة انكماش الامبراطوريات الكبرى في تلك الفترة ليتربع ويصبح ملكا على العبرانين في بلاد الشام(72). وحاول أن يحقق الوحدة السياسية في مملكته التي أراد بها تحقيق الوحدة الدينية(73). وتثبيت أسس مملكته، حيث اصطدم بالاراميين عندما اصطدمت دمشق بمملكة إسرائيل في أواسط القرن الحادي عشر قبل الميلاد وبما أن هذه الامارات الارامية كانت على الفرات على اتصال دائم مع بعضها البعض من الممالك الارامية في الأخرى في سوريا وبلاد وادي الرافدين بدافع القومية الواحدة، لذلك استنجد (أراميو) دمشق بالاراميون من أبناء الفرات(74). وهذا ما يثبت انتصارات النبي داود على الصعيد الدولي، والهدف من هذه الحملة التي قام بها هو لإخضاع الاراميين المتواجدين ما وراء الفرات(75).

وبالفعل تمكن من اخضاعهم واخذ الجزية منهم ، ثم جاء من بعده سليمان () (973- 936 ق.م) وبقى محافظا على مملكة أبيه وسياسته في السيطرة، وظل متسلطا على جميع الممالك ابتداءا من الممالك الممتدة من نهر الفرات (أواسط سوريا وحتى مصر) فخضع له جميع الملوك وأطاعوه(76).

ومن الطبيعي أن اخضاع الاراميين من قبل النبيين داود وسليمان (عليهما السلام) ووصول سلطانهم إلى جزء من حوض الفرات، ربما فرض عليهم عقيدة التوحيد ولو أنها لم تستمر لبعد قوتهم ولكن يمكن أن نخمن أنهم ربما إنقادوا تحت تأثير عقيدة التوحيد.

مما تقدم يتضح أن الجزء الأكثر تأثير بديانة التوحيد (بلاد الرافدين وسوريا) وخصوصا الجزء الأدنى من الحوض (بلاد الرافدين) لأنه كان المنطلق الأول للتوحيد والذي منه أنتشر الانبياء وبشروا بعقيدتهم الجديدة إلى بقية المناطق وتأثر الأقوام بالعقيدة التوحيدية.

ويتضح من كل ذلك ان دعوة التوحيد التي نادى بها ابراهيم() تلتها نبؤات اخرى نادوا بالتوحيد ايضا لان تلك الدعوة لم ينته امرها في عمر ابراهيم ومع انه عليه السلام عمر طويلا والشرك لازال قائما وغادر دنياه والشرك له اتباعه الا ان دعوته بقيت حتى اتى خاتم الرسل() وكان هو مسك الختام(77).

الهوامش

(1) سليمان، عامر جوانب من حضارة العراق القديم (العراق في التاريخ)، بغداد، 1983، ص208.

(2) السواح، فراس، دين الانسان، ط 4، (دار علاء) الدين، سوريا، 2002، ص47.

(3) معوشي، سامية، دراسة مقارنة لاساطير خلق الكون والأنسان بين السومريين والبابليين، مجلة الحكمة، مؤسسة كنوز الحكمة – الجزائر ع 20، 2013 ، ص 64 .

(4) بارندر، جفري، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة (أمام عبد الفتاح)، (عالم المعرفة- الكويت)، 1995، ص 11.

(5) حسين، مازن محمد، الأسطورة في بلاد الرافدين دراسة في الفكر الأسطوري الملحمي والثقافة السومرية والأكدية، مركز بابل للدراسات الأنسانية، مج6، ع4، 2016، ص301.

(6) السواح، فراس، الأسطورة مكون أساسي من مكونات الدين، (حوار حول الأسطورة) (مبدعون- أبو ظبي)، 2003.

(7) إلياد، مرسيا، مظاهر الأسطورة، ط1، (ترجمة: نهاد خياطة)، دار، كنعان، (دمشق) 1991، ص10.

(8) العبيدي، محمد جاسم، مفاهيم الأسطورة في فن الفخار الرافديني القديم فخار العبيد أنموذجاً، مجلة كلية التربية الاساسية، الجامعة المستنصرية، ع 57، 2009 ص434.

(9) هوك، صموئيل، هنري، الأساطير في بلاد ما بين النهرين، ترجمة (يوسف داود عبد القادر)، المؤسسة العامة للصحافة والطباعة ، بغداد)، 1968، ص1.

(10) إلياد، ميرسيا، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ط1، ترجمة(عبد الهادي عباس) (دار دمشق)، 1987 ، ج1، ص180- 182.

(11) الماجدي، خزعل، المعتقدات الكنعانية، ط1، (دار الشروق، الأردن)، 2001، ص126.

(12) حنون، نائل، هل كان تموز في عقائد السومريين والأكديين إله الخصوبة أومن إلهة الموت، مجلة سومر ع36، 1980، ص51.

(13( الدباغ، تقي، الفكر الديني في أسيا الصغرى في عهد الحيثين، مجلة كلية الأداب جامعة بغداد، ع25، 1979، ص271.

(14) Hoffner, Harry A . , Hittie Myths, 2nd edition society of Biblical Literature, 1998, V. 2. P.4.

(15(بدير، شافية و عبد الحميد، نور جلال، تاريخ الشرق الأدنى القديم (شبه الجزيرة العربية – إيران – الاناضول)، كلية الأداب، جامعة عين شمس، د.ن 0 ص301.

(16( إلياد، تاريخ معتقدات والأفكار الدينية، ص184.

(17( الشواف، قاسم، ديوان الأساطير( سومر وأكاد وأشور) ط1، دار الساقي – بيروت)، 1999 ، ج3، ص، 124- 125.

(18( عزيز، كارم محمود ، اساطير التوراة الكبرى تراث الشرق الادنى القديم، ط1, مكتبة النافذة ، الجيزة،2006 ، ص34.

(19( السواح، فراس مغامرة العقل الأول دراسة في الأسطورة، سوريا، أرض الرافدين، ط11، دار علاء الدين، دمشق). 1996، ص100.

(20( السواح، مغامرة العقل الاولى دراسة في الاسطورة سوريا ارض الرافدين، ص100- 101.

(21) الشواف، قاسم، المصدر السابق، ج3، ص، 124- 125

(22) عزيز، كارم، المصدر السابق، ص34.

(23) السواح، مغامرة العقل الاولى دراسة في الاسطورة سوريا –ارض الرافدين ، ص100.

(24)Hoffner, ibid , p 11-12 .

(25(فيروللو، شارل، اساطير بابل كنعان، ترجمة(ماجد خير بك)، د0م، 1990، ص 80 .

(26)لابات، رينية واخرون، سلسلة الاساطير السورية، ط2، ترجمة (مفيد عرنوق)، دار علاء الدين – سوريا،2006، ص 442-448.

(27(لابات، رينية واخرون، المصدر السابق ، ص 442-448.

(28) هوك، صموئيل ، هنري، الأساطير في بلاد ما بين النهرين، ترجمة : يوسف داود عبد القادر ، المؤسسة العامة للصحافة والطباعة ، بغداد، 1968. ص53 – 54.

(29(فيروللو، المصدر السابق، ص 30-31.

(30( هي مرحلة متوسطة ما بين الشرك والتوحيد لانه يضمن الاعتقاد بوجود إله واحد دون منع الاعتقاد بالالهة الآخرى أي ان ظاهرة تعدد الالهة تبقى جنباً الى جنب مع عبادة إله معين يخصونه بالتكريم. ينظر، الدباغ تقي، آلهة فوق الأرض دراسة مقارنة بين المعتقدات الدينية القديمة في الشرق الأدنى واليونان، مجلة سومر، مج23، ع1 و2، 1967، ص103.

(31( الدباغ، المصدر نفسه، 103.

(32( معضد، علي هاشم، بعض الأصول المشتركة بين المعتقدات العراقية القديمة ومعتقدات الشعوب الافريقية القديمة، مجلة كلية الأداب جامعة بغداد، ع119، 2016، ص277.

(33( الدباغ، الفكر الديني في أسيا الصغرى في عهد الحيثين ، ص360.

(34( جرك، أوسام بحر، تأثير فنون بلاد الرافدين على الفنون الحثية، أطروحة دكتوراة غير منشورة، (جامعة بغداد- كلية الأداب)، 2004، ص117- 118.

(35( الحديدي، خلف، زيدان ، الديانة الحثية في بلاد الاناضول، اطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة الموصل، كلية الأداب، 2012، ص37.

(36) الدباغ، الفكر الديني في أسيا الصغرى في عهد الحيثيين، ص367- 373.

(37) أسمن، يان، الذاكرة الحضارية (الكتابة والذكرى والهوية السياسية ) في الحضارات (الكبرى الأولى)، ترجمة (عبد الحليم عبد الغني)، ط1، (المجلس الأعلى للثقافة- القاهرة)، 2003 ، ص439.

(38( الدباغ، الفكر الديني في اسيا الصغرى في عهد الحيثيين، ص362.

(39( حمود، محمود، الديانة السورية القديمة خلال عصري البرونز الحديث والجديد (1600- 333ق.م) الهيئة العامة السورية –(دمشق) ، 2014، ص28. وينظر ايضاً/ مقدسي، ميشيل، دورة الملوك الموتي (تقديس الأجداد في سوريا) وفي نهاية الالفية الثانية قبل الميلاد، مجلة مهد الحضارات، (مركز الباسل، سوريا)، ع2، 2007، ص30.

(40)كلينكل، هورست وإيفلين، إله الطقس السوري والعلاقات التجارية، ترجمة (علي خليل) (مجلة الحوليات الأثرية السورية، المديرية العامة للأثار والمتاحف، سوريا، مج43، 1999، ص311 – 312.

(41( أدزارد. د. وأخرون، قاموس الألهة والأساطير في بلاد الرافدين (السومرية والبابلية) في الحضارة السورية (الاوغاريتية والفينيقية)، ترجمة محمد وحيد خياطة، دار الشرق العربي – بيروت) د. ت، ج1، ج2، ص30.

(42( حمود، محمود، المصدر السابق، ص527-528.

(43( مرزينا، كيوريك، ملامح في الفكر العراقي القديم، مجلة أداب الرافدين، جامعة الموصل، كلية الأداب، ع9، 1978، ص111.

(44( الناضوري، رشيد، المدخل في التحليل الموضوعي المقارن للتاريخ الحضاري والسياسي في جنوب غربي أسيا وشمال أفريقيا الكتاب الأول، (دار النهضة، بيروت) ، 1969، ص54 – 55.

(45( باقر، طه، ديانة البابليين والاشوريين، مجلة سومر، مج 2، ج1، 1946، ص3.

(46( الأحمد، سامي سعيد ، المعتقدات الدينية في العراق القديم، المركز الاكاديمي للابحاث –بيروت،2013 ، ص17.

(47( باقر، المصدر السابق، ص16.

(48) اوبنهايم: ليو ، بلاد مابين النهرين ، ترجمة ( سعدي فيضي عبد الرزاق)، دار الرشيد- بغداد، 1981 ، ص 227- 228 0

(49( النمر، حسن، دور التوحيد في بناء الحضارات والمجتمعات رؤية قرآنية، ط1، (دار الولاء للطباعة، بيروت)، 2010، ص 24- 25.

(50( حنون، نائل، تطور الفكر الديني في حضارة بلاد الرافدين القديمة، مؤتمر العميد – العتبة العباسية المقدسة) مج3، ع 11، 2014، ص37.

(51( جركسيان، د. ليون، تاريخ أديان التوحيد في الهلال الخصيب، ط1( خطوات للنشر والتوزيع – دمشق)، 2011 ، ص15.

(52( الحجلي، أيوب، العبادات الأئمة، (دار الكتب للنشر والتوزيع القاهرة)، ط2، 2018، ص49- 50.

(53(الكيلاني، رعد شميس الدين، الانبياء في العراق القديم (دراسة مقارنة بين القرآن والتوراة والأثار)، دار الشؤون الثقافية - بغداد)، 2001، 245- 246.

(54(حنون، تطور الفكر الديني في حضارة بلاد الرافدين القديمة، ص374.

(55(جميل، فؤاد، الطوفان في المصادر – السومرية – البابلية – الاشورية – العبرانية، ط1(المركز الاكاديمي للأبحاث- كندا) 2014، ص51.

(56(حنون، المصدر السابق، ص374.

(57(سمسم، عبد المعطي بن محمد، العلاقة بين شمال شبه الجزيرة العربية وبلاد الرافدين (منذ أقدم العصور وحتى القرن السادس ق.م) ، ط1، (إيترك للطباعة والنشر- القاهرة)، 2008، ص311.

(58(سوسة، احمد، العرب واليهود في التاريخ حقائق تاريخية تظهرها المكتشفات الاثارية، دار الحرية - بغداد، 1972 ، ص264.

(59) جركسيان، المصدر السابق، ص80.

(60(سمسم، المصدر السابق، 313.

(61(يحيى، هارون، الامم البائدة، ترجمة (ميسون نهاوي)، د. ت، ص40 – 41 .

(62(المغلوث، سامي عبدالله أطلس تاريخ الأنبياء والرسل، ط1، (مكتبة العبيكان- الرياض) ، 1998، ص52.

(63( بهنسي، عفيف، التراث الأثري السوري، ص114- 115- 116 .

(64( العدل، سعد عبد المطلب، أخناتون أبو الانبياء د.ت. د. م، ص73، 74.

(65( نجيب، قليني، الكتاب المقدس بين التاريخ والآثار، ط2، ص40.

(66( المغلوث، المصدر السابق، 52.

(67( خليف، بشار، نشوء فكرة الألوهة(مقاربة تاريخية- فكرية) ط1، الأهالي للطباعة والنشر- سوريا)، 2011، ص256- 257 .

(68(حنون ، تطور الفكر الديني في حضارة بلاد الرافدين القديمة، ص375.

(69( زرهار، مصطفى، مقاربات في النص التوراثي (سفر أدعوت أنموذجا)، ط1 (دار صفحات للدراسات والنشر- سوريا)، 2012، ص84.

(70(الكيلاني، المصدر السابق، ص275.

(71(المغلوث، المصدر السابق، ص53.

(72(سلمية، لبحور، المملكة العبرانية في عهدي داود وسليمان في الفترة ما بين 1004 – 922 ق. م.، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري، الجزائر، 2009 / 2010، ص52.

(73(سلمية، المصدر نفسه، ص78.

(74(عياش، عبدالقادر، حضارة وادي الفرات (مدن فراتية القسم السوري)، ط1، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق)، 1989، ص189.، 90.

(75(أبونا، البير، الاراميون(7) ودمشق وجنوبي سوريا، مجلة بيت النهرين، بغداد، ع137- 138، 2007، ص40 .

(76( منصور، ماجدة، دمشق الارامية في الالف الأول ق. م، كلية التربية، الجامعة المستنصرية، ص5-6.

(77) زايد، عبد الحميد، الشرق الخالد ،دار النهضة ،د0م ،د0ت، ص415.